إخلاءُ الذات
عطاءُ محبةٍ أبدية

دكتور

جورج حبيب بباوي

٢٠١٧

www.coptology.org

حركة المحبة الإلهية

عندما وصف القديس كيرلس الكبير رسول الرب بولس بأنه "الحكيم جداً" و"الماهر في فهم أسرار الله" كان يشير إلى تلك الحكمة الإلهية التي سكنت ذلك القلب الكبير، فوضع في رسائله ذلك التعبير الذي يصف به اتحادنا بالرب، والذي بلغ عدد مرات استخدامه حسب علماء العهد الجديد ١٦٥ مرة: "في المسيح"، و"بالمسيح"، و"بواسطة المسيح". يقول بولس عن نفسه: "أعرف إنساناً **في المسيح**". قد يحاول البعض أن يبسِّطَ الأمر، فيقول إنه أراد أن يقول: "أعرف إنساناً مسيحياً" مستبدلاً تعبير "مسيحياً" بتعبير "في المسيح"، ولكن هذا البعض لا يدري أنه بذلك يكون قد نزع فاعلية أو ديناميكية حياة بولس الذي أراد أن "يوجد في المسيح" (فيلبي ٣: ٨، ٩).

فما هو سر ذلك الحب الفياض الذي جعله يرى أن محبة المسيح تحاصره في كل قول وفعل وحركة وصراع مع معلمي الكذب الذين سمَّاهم "الأخوة الكذبة"، ولعلنا نلاحظ أنه رغم كذب هؤلاء، لم ينزع عنهم الأُخوَّة.

لقد أدرك بولس قوة يسوع، قوة الانعطاف الدائم نحو الإنسان. ولذلك رَسَمَ بالكلمات أيقونة المحبة الخالدة في (١كو ١٣: ١-٨). وملامح هذه المحبة في جوهرها، هي محبة يسوع نفسه "الذي أحبني وأسلم نفسه لأجلي". محبةٌ تجعله لا يفتخر إلا بالصليب، بكل ما تحمله هذه العبارة من عزم وقوة: "أما أنا فحاشا لي"، أي ممنوع منعاً باتاً الافتخار بغير الصليب. فما هو سر تقوى بولس؟ أولاً: "الله ظهر في الجسد"، هو ذلك السر العظيم (١تيمو ٣: ١٦)، ولكن مع ظهور الله في الجسد واجتماع

الإنسانية في حشدٍ جديد هو جسد المسيح (١كو ١٢: ١٢)، أي الكنيسة (١كو ١٢: ٢١)، لا يقف الأمر عند هذا الحد، ولا يؤول إلى سكون وانعدام حركة؛ لأن هذا الابن الذي "أخلى ذاته وأخذ صورة العبد" (فيلبي ٢: ٩)، رُفِعَ "في المجد"، بل "ظهر لملائكة"، "وجلس عن يمين الآب في السماء". وعلى ذلك، فالإخلاءُ هو حركةٌ دائمةٌ، حركة المحبة التي لا تتوقف عن العطاء، عن أن تضم إليها كل يوم الذين "يغطسون"، أي "يعتمدون" في "الصلب والموت والدفن والقيامة" (رو ٦: ١-٨).

هذه هي حركة المحبة الإلهية نحو البشر. وقد بدأت هذه الحركة بتجسد يسوع الذي "من نسل داود". ورغم إنسانيته التي حدثت تحت حكم الشريعة (غلا ٤: ٤-٦)، إلا أنه بالقيامة من الأموات، تُوِّجَ بالروح القدس. وقد استخدمنا كلمة "تُوِّجَ" بدلاً من كلمة تعيَّن -حسب ترجمة فان ديك- لأن كلمة تعيَّن ترجمة خاطئة تعطي الانطباع بأن ابن الله لم يكن ابنَ الله، ثم صار ابن الله، فهذا ما تعنيه كلمة "تعيَّن"، ولكن الكلمة اليونانية تحتمل أكثر من معنى ليس التعيين واحداً منها، بل هي تعني: انتصار - واستعلان - والنداء بيسوع ابن الله، وهو نداءٌ يقوم به الروح القدس؛ لأنه نداءُ حياة مَن غَلَبَ الموت. إذن لا تكفي الترجمة الحرفية، بل يجب أن نبحث في المضمون من خلال ما كتبه بولس نفسه (راجع رو ١: ١ — ٣) لأن يسوع هو "ملك الدهور الذي لا يفنى الإله الحكيم وحده ..." (١تيمو ١: ١٧).

واستعلان قوة يسوع وملكه وعمله الفائق وشدة قوته، يعبِّر عنه ذلك اللقب: "المخلِّص"، الذي يرتكز بشكل أساسي على "الرب"، فهو الذي "أنار الحياة بواسطة البشارة (الإنجيل)". هو الخلود الذي فقده الإنسان، ولذلك يقول بولس: "لي الحياة هي المسيح والموت هو ربح"؛ لأن "ما أحياه الآن في الجسد، أحياه في الإيمان، إيمان ابن الله الذي أحبني وأسلم نفسه لأجلي"، والصليب هو "نعمة الله"؛ لأنه أعلن "بر الله" (رو ٥: ١). والبر هو الحياة التي يقدمها الله لكل الخطاة. وحسب شرح الأب متى المسكين "البِّرُ" هو إعلان براءة الإنسان من كل الخطايا، وهو شرحٌ لا يقبله تلاميذ موسى من الإكليروس، بالرغم من أن الله وَعَدَ حتى في العهد القديم، أن لا

يذكر الخطايا، بل "يدوس عليها" (ميخا ٧: ١٨-٢٠). وفي العبرانيين يقدم رسول الرب ذات الوعد، عند حديثه عن موت المسيح الذي لا يمكن فهمه من خلال نظام ذبائح العهد القديم (عب ١٠: ١-١٠).

الاتحاد الأقنومي حركة دائمة للمحبة:

ساد اعتقادٌ لدى علماء العهد الجديد أن (فيلبي ٢: ٥-١١) هي ترنيمة قديمة، وكان السبب الأول لهذا الاعتقاد هو أن معظم الفقرات جاءت في قالب الشعر اليوناني، ذلك الشعر المقفَّى على أوزان شعرية قديمة جعلت الكثيرين يعتقدون أننا إزاء ترنيمة تضع الإيمان المسيحي في أسلوب قابل للحفظ لسهولته:

- "المسيح يسوع كان في صورة الله لم يحسب مساواته لله خلسة

أخلى ذاته

آخذاً صورة العبد

صائراً في شبه البشر

صورة الله μορφή θεού

صورة العبد μορφή δουλου"

التنازل هو تنازلٌ حقيقيٌّ لأنه وُلِد "شبه البشر". صار إنساناً إلى الأبد حتى بعد أن رفع إلى مجده. ظلَّ إنساناً حقاً، ممجداً بالصعود والجلوس عن يمين الآب، بل "أعطاه الله اسماً فوق كل اسم" (هو اسم الألوهة الكاملة)، وفي العبرانية الاسم الذي فوق كل اسم هو "يهوه"؛ ولذلك تسجد الخليقة كلها له، بل يعترف كل لسان "أن يسوع هو ربٌّ لمجد الله الآب" (فيلبي ٢: ١١). ولذلك، فإن ميلاد من أخلى ذاته

وموته وقيامته، هو بدءٌ جديدٌ لعلاقةٍ جديدةٍ:

١– أصبح في الحياة الإلهية إنساناً مُتَّحداً بالابن إلى الأبد، فلم يعد اللاهوت الذي يشمل الآب والروح القدس، وليس الابن وحده هو الألوهة التي قَبِلت الإنسانية من إنسان. هذه ليست فكرة، ولكنها انتقالُ الكيان الإنساني إلى المجد الإلهي، والحياة الإلهية في يسوع المسيح. هنا بالذات "تجثو كلُّ ركبةٍ"، و"يعترف كل لسان بأن يسوع هو ربٌّ لمجد الله الآب"، إذ لم يفقد الثالوث مجده، بل طَبَعَ مجده بأكثر جمال وجلال بقبول الابن أن يكون في صورة العبد، لكي ينقل صورة العبد إلى صورة الرب، ويبقى إنساناً. وبقاء الإنسانية كما هي إنسانية، هو استعلان المحبة الإلهية الفائقة التي لا تزال تعطف وتتنازل إلى الإنسانية في السرائر بالذات، حيث يتم تحول صورة العبد في المعمودية إلى صورة الابن، وتُمسَح بالروح القدس كما مُسِحَ يسوع في الأردن، وتتحول من آدم الأول إلى آدم الأخير "الرب من السماء"، انتقالٌ ليس بالفكر وحده، بل بالكيان.

٢– وأصبح كل قداس هو استمرارٌ للإخلاء إلى أن ينتهي التدبير بدخول الخليقة الجديدة الملكوت الأبدي بعد أن ذاقت العربون. فالرب يخلي ذاته عندما يوزِّع جسده ودمه علينا "لكي نحيا به"، حسب قوله: "مَن يأكلني يحيا بي" (يوحنا ٦: ٥٧).

توقَّفتُ مرةً عند عبارة الرب هذه في حديث مع الأب فليمون المقاري، فقال لي: "هات الكلام الإلهي من أوله؛ لأن الرب قال: "كما أرسلني الآب، وأنا حيٌّ بالآب، فمن يأكلني يحيا بي"؛ لأن الإنسان الأول خُلِقَ من العدم، وكان يأكل من كل ثمار أشجار الجنة لكي يحيا، يعني ليس له حياة في ذاته؛ لأن الله وحده له حياة في ذاته. ولكن لَمَّا صار الابنُ له المجد، شجرةَ الحياة التي كلُّ مَن يأكل منها يحيا إلى الأبد، قال: "مَن يأكلني"؛ لأن الأكل هو احتياج يؤكد أن الإنسان بلا حياة أبدية في ذاته. تجسَّد لكي يجعل نفسه طعاماً". وتوقف الأب فليمون عن الكلام. لكن يظل الإخلاء يُملي علينا أن نتوقف أمام ذلك الانحناء الفائق نحو الخليقة.

٣– فهو انحناءٌ وإخلاءٌ لسكنى الرب فينا "المسيح فيكم رجاء المجد". أمام ذلك المجد، يجد بولس الرسول أن كل ما كان له في حياته السابقة على الإيمان هو "زبالة"، بل "خسارة" لم يكسب منها شيئاً (فيلبي ٣: ٧-٢٨)؛ لكي "أربح المسيح وأُوجد فيه". ولعل القارئ يقف أمام هذه الكلمات: "وأُوجد فيه، وليس لي بري الذي من الشريعة، بل الذي بإيمان المسيح البر الذي من الله بالإيمان" (فيلبي ٢: ٩).

ما حققه تجسد ابن الله بالإخلاء:

يبدو لمن شاء أن يتوهم، أن "مكونات التدبير"، وهي: الحبل البتولي – المسحة في الأردن – الصراع في البرية – المعجزات والتعليم – الصلب والموت والدفن والقيامة – الصعود، هي أحداثٌ متباعدة غير متصلة. هذا الوهم يداعبنا ويسيطر علينا عندما نفقد الرؤيا الليتورجيا بأننا نحتفل بالأعياد السيدية كلها بالقداسات؛ لأن في كل قداس، الأقنوم أو الشخص الذي فعل هذا وذاك "لأجلنا"، أي وُلِدَ واعتمد وصارع الشيطان وصُلِبَ ودُفِنَ بعد موته، ثم قام حياً، هو ذاته الذي لأجلنا هو حاضرٌ معنا يُقدِّمنا للآب بالروح القدس بواسطة هذه الانجازات الكبرى الفعالة (الديناميكية). فعندما نأتي إليه، وهو الساكن في وسطنا، والذي إليه ننتمي انتماء "الرأس للأعضاء" (١كو ١٢: ١١-١٢)، فهو يمنح من "مكونات التدبير" ما أنجزه من عودةٍ إلى الله الآب من خلاله "كوسيطٍ ورأس"، عودة إلى الآب، ولكنها عودة الأعضاء "أعضاء جسده"؛ لكي تشترك في ذات الحياة الإلهية الواحدة من خلال "الوسيط"، فقد صار لنا "أصلٌ جديد" هو يسوع المسيح، نعرفه بالشركة المستعلَنة. هكذا جمع الشخص أو الأقنوم حياته مثل سفرٍ متعدد الإصحاحات، ليست مكتوبةً بحروف، بل مرتَّبةً حسب التدبير لكي يضم إليه الذين يؤمنون به:

أولاً: بالولادة الجديدة التي أخذتْ أساسها من الحبل البتولي، والتي تُوهب في المعمودية المقدسة.

ثانياً: بمسحة الروح القدس التي مُسِح هو بها ليكون لنا شركة في مسحته (١يوحنا ٢: ٧) "المسحة التي أخذتموها منه"، إذ لا صلة لنا بالروح القدس بدون وساطة الرب. وهكذا، يؤكد أستاذنا أثناسيوس أننا مُسحنا فيه واعتمدنا فيه عندما اعتمد الرب ومُسح في الأردن (ضد الأريوسيين ١: ٤٧).

ثالثاً: ولأن التدبير جاء بالشركة، لذلك السبب يقول بولس: "لأعرفه وقوة قيامته وشركة آلامه متشبهاً بموته" (فيلبي ٣: ١٠)؛ لأن الصلب والقيامة ليست أموراً حدثت لكي تنتهي، بل حدثت لكي تدوم. وهكذا نعرفه في سر المعمودية بالصلب والدفن والموت والقيامة معه (رو ٦: ١-٨).

رابعاً: ويأتي الربُّ العارف بضعف البشر هو ذاته الكائن على المذبح موزِّعاً حياته لكي تبقى فينا "خدمة المصالحة" (٢كو ٥: ١٨)؛ لأن الآب "صالحنا لنفسه" غير حاسبٍ لنا خطايانا، بل وخطايا العالم أيضاً (٢كو ٥: ١٨). ولعل الترتيب الكنسي في صلاة الصلح يغرس فينا هذا الوعي بتدفق الحياة الإلهية فينا دون أن يكون لنا استحقاق؛ لأن المصالحة "لا تحسب الخطايا".

النداء الأخير:

مطلوب، كما يقولون في تدريب الجيوش "نوبة صحيان"، وحاجتنا إلى هذه "الصحوة" باتت واضحة أكثر من ذي قبل. صحوةٌ تؤكد لنا أن مواعيد الله التي حفظها الأنبياء لم تأتِ من الشريعة، ولم تكن حسب الشريعة، أي شريعة موسى؛ لأن حشر شريعة موسى في داخل تدبير الخلاص يدمر ما عمله المسيح فينا ولأجلنا، وهو ما يتضح من خلال المقارنة الآتية:

الشريعة	الإنجيل
الشريعة تحكم علينا	الإنجيل يعلن الغفران
الشريعة تحدد عقوبات الخطايا	الإنجيل يمنح النعمة، بل يعطي ميراث الملكوت
لا توجد مواعيد في الشريعة	الإنجيل لا يقدم فقط المواعيد، بل يؤكد نوالها في المسيح بالروح القدس.
الشريعة للعبيد	الإنجيل للأبناء
لا شركة في حياة الله حسب الشريعة	صرنا شركاء الطبيعة الإلهية

إذن لماذا الشريعة؟ والجواب للقديس بولس:

١– لم أعرف الخطية إلا بالشريعة – الناموس (رو ٧: ٨). والخطية تدفع أجرة لمن يخطئ "لأن أجرة الخطية هي موت" (رو ٦: ٢٣).

٢– يا اخوتي قد متم للشريعة بجسد المسيح (رو ٧: ٤)، فقد مات حكم الموت، ولذلك "لكي تصيروا لآخر للذي أقيم من الأموات لنثمر لله" (رو ٧: ٤).

٣– قبل المسيح "عاشت الخطية فمت أنا" (رو ٥: ٩)، وهو حكم الموت. وهكذا صارت الوصية التي للحياة هي نفسها للموت (رو ٧: ١٠).

هل الشريعة شر؟

أبداً، هناك فرق بين مَن يشخِّص المرض ويؤكد موت المريض؛ لأن التشخيص صحيح، ولكن الموت ليس هو الحل، هكذا يجب أن نقرأ: (رو ٧: ١٢-١٣) هل

"صار الصالح موتاً" (رو ٧: ١٣)؟ حاشا. بل الخطية خاطئة جداً. لكي يظهر أن الخطية تجعلني أصطدم بالشريعة، وتجعل ما هو صالح موتاً، عندئذ تصير الخطية خاطئة جداً" (رو ٧: ١٣).

رسالة غلاطية إلى عبيد العصر الوسيط:

وساطة الشريعة التي تقرب الإنسان إلى الله، ليست مثل وساطة المسيح الذي جاء لكي يشركنا في حياة الله.

لقد وصف بولس نفسه بأنه أؤتمن على إنجيل الغرلة، أي الأمم (غلا ٢: ٧). ما هو محور الصراع في انطاكية (غلا ٢: ١١-٢١)؟

- رَفَضَ بطرس الأمم، بل يبدو من نص ٢: ١٢ أنه رفض شركتهم في العشاء الرباني: "يفرز نفسه" (٢: ١٢)، وهو ما جعل بولس يرى أن الأمر ليس مجرد الشركة في الطعام اليومي؛ لأن العبارة التالية قاسية جداً: "لكن لما رأيت أنهم لا يسلكون باستقامة حسب حق الإنجيل" (٢: ١٤).

- "الإنسان لا يتبرر بأعمال الشريعة" (أعمال الناموس). عبارة شاملة تؤكد أن ما يعمله الإنسان لا يجعله مقبولاً عند الله، وهو أقل ما يمكن أن يُقال عن التبرير.

- يقول معلمنا بولس: "فإن كنت أبني ما قد هدمته"، أي وساطة الشريعة في أن تقرِّب الإنسان إلى الله، وبهدم الشريعة يصبح بولس "متعدياً" (٢: ١٨)، والدليل على هدم وساطة الشريعة: "لأني مت بالشريعة (الحكم) للشريعة" التي لا تحاكم الموتى لأحيا لله، فكيف حدث هذا التحول؟ يجيب بولس: "مع المسيح صُلبت" مات بولس، ولكنه: "فأحيا لا أنا"، أي الإنسان القديم الساعي إلى البر بقوة أحكام الشريعة، "بل المسيح يحيا فيَّ"، أي الحياة الحرة من الموت، ولذلك يختم: "لست أُبطِّل نعمة الله؛ لأنه لو كان بالشريعة بر، فالمسيح إذاً مات بلا سبب" (٢: ٢١).

وساطة الشريعة والنظام الكنسي:

نحتاج إلى وقفة رجال لكي نميِّز بين ضبط النظام الكنسي والترتيب، وشريعة العهد القديم. فالطقوس هي "ممارسة التدبير", الطقوس ليست شريعة، بل هي السلوك الذي يجعلنا نقبل النعمة. فكل ما نقوم به لا يؤهلنا لنوال النعمة، بل يغرسنا في بحر النعمة الفياض بالشركة وبالمحبة الثالوثية. رشم الصليب هو أبسط طقوسنا، بل حتى لوثر نفسه قال إنه احتفال بالمعمودية، وعندنا هو ختم العهد، وشركة في المصلوب، واعترافٌ بالثالوث، وهو يتم بالروح القدس؛ لأنه يمارَس بنفس كلمات التعميد: "باسم الآب والابن والروح القدس".

من أين جاء الخلط بين الشريعة والقانون الكنسي؟

القانون وضع لحماية الإيمان وضبط السلوك حسب الإنجيل، وهو لذلك ليس مثل القانون المدني يحمل عقوبات في كل مادة، بل يحمل السبب في نص القانون نفسه، وأحياناً بالاستناد إلى وقائع تاريخية معينة مثل قانون عدم انتقال أسقف من إيبارشية إلى أخرى حتى لا يصبح الكهنوت وسيلة ربح، فيبحث الأسقف عن الكنائس الغنية ويهمل خدمة الفقراء. ولكن شريعة موسى قامت **أولاً** على الكهنوت، و**ثانياً** على نظام الذبائح، و**ثالثاً** على قواعد سلوك خاصة بالحياة اليومية من شرائع الطهارة والنجاسة. ولعل صرخة بولس تجد صدى لها في الضمائر:

– فقد تغيَّر الكهنوت "بالضرورة يصير تغيُّر للشريعة"، وهو معنى (عب ٧: ١٣)، ويردف هذا بقوله: "يصير إبطال الوصية السابقة من أجل ضعفها وعدم نفعها" (عب ٧: ١٨)؛ لأن الشريعة التي تحاول أن تقرِّب الإنسان من الله، فقدت عملها، ولذلك يقول: "الشريعة لم تكمِّل شيئاً، ولكن يصير إدخال رجاء أفضل به نقترب إلى الله" (٧: ١١) لأننا بالرجاء نقترب لا بأعمال الشريعة.

– جاء العهد الجديد، فصار العهد الأول عتيقاً، ولذلك "وأما ما عتق وصار قديماً وشاخ فهو قريب من الاضمحلال" (٨: ١٣).

– الشريعة هي ظل الخيرات الدائمة الأبدية التي جاء بها يسوع، وليست هي نفسها جوهر هذه الخيرات (عب ١٠: ١). والذين عاشوا حسب الشريعة، لا يمكن لهم بنفس الذبائح التي يقدمونها كل سنة أن يكملوا (عب ١٠: ١)؛ لأن دم الحيوانات لا يمكن أن يدخل ضمير ووجدان الإنسان، ولا "يرفع الخطايا" (عب ١٠: ٤).

من هنا نقول إن حفظ النظام الكنسي على حساب الإيمان، هو رِدة إلى اليهودية، وهو رِدة عن جهل.

د. جورج حبيب بباوي